ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون
العدد (1404) السنة السادسة الإثنين (5) كانون الثاني 2009

ذكرى مئة عام على وصول أول سيـــارة الى بغداد

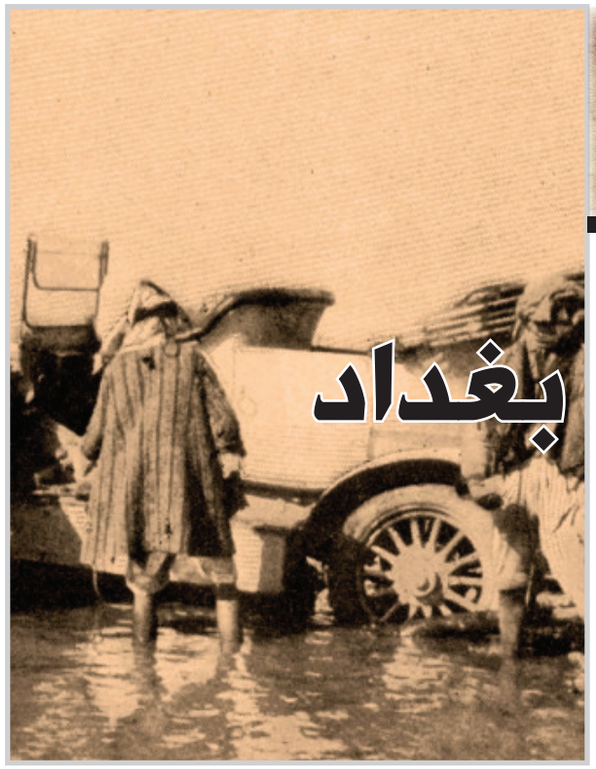

إنزال السيارة من العبارة الى جرف النهر

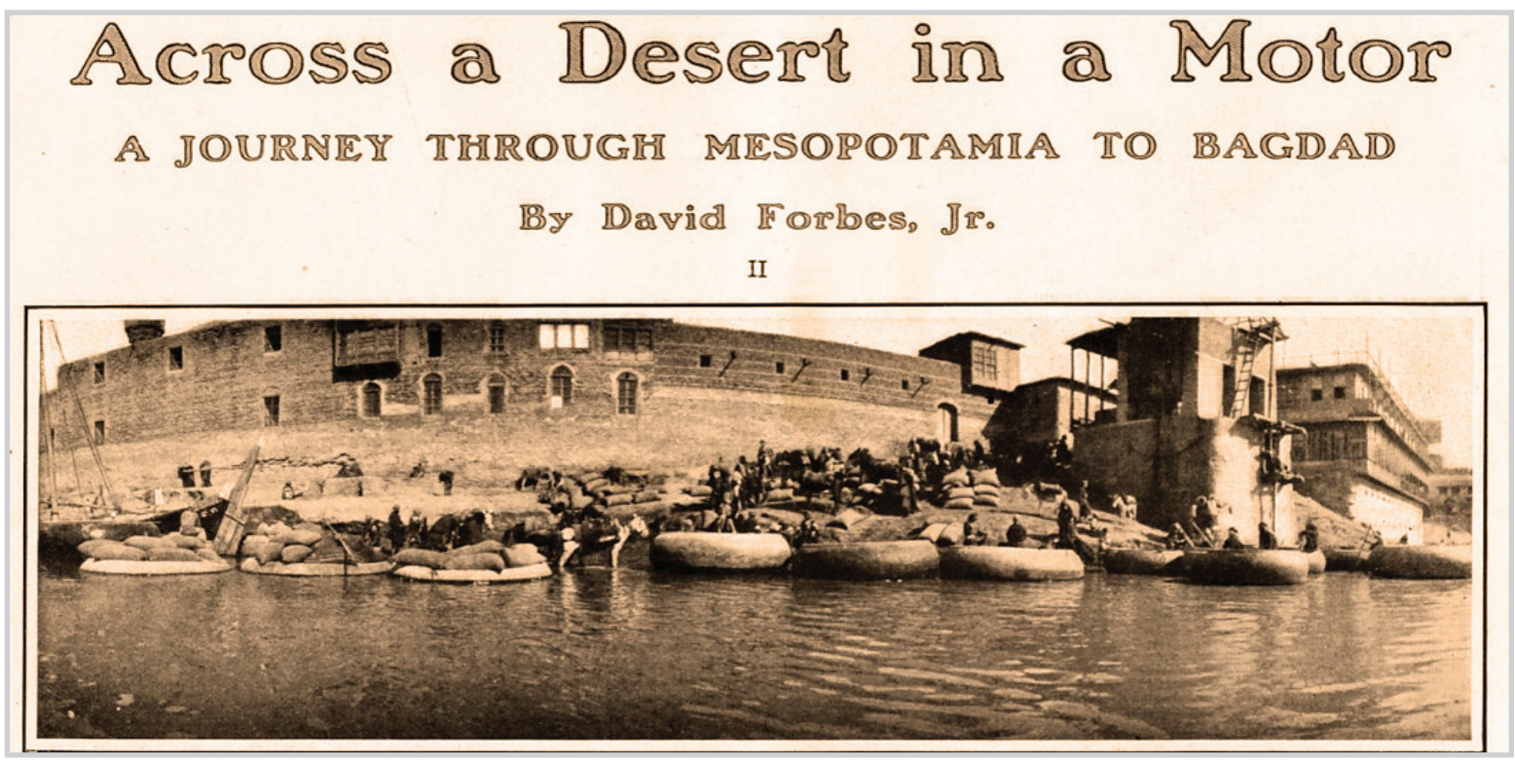

عنوان المقالة في مجلة هاربر الأمريكية مع صورة لجانب النهر في مدينة بغداد.

Across a Desert in a Motor

A JOURNEY THROUGH MESOPOTAMIA TO BAGDAD

By David Forbes, Jr.

II

علي ابو طحين

تصادف هذه الأيام ذكرى مئة عام على دخول أول سيارة الى العراق. ففي مساء يوم الأثنين ٢٣ تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ وصلت بغداد أول سيارة قادمة من مدينة حلب عبر الصحراء الغربية. ولم يكن الحدث بالطبع عادياً، حيث يصفه الدكتور علي الوردي في الجزء الثالث من اللمحات صفحة ٢٤٠، فيقول: «وفي عام ١٩٠٨ وردت الى بغداد من حلب أول سيارة، فخرج أهل بغداد للتفرج عليها، وصار بعضهم ينظرون تحتها لكي يكتشفوا الحصان الكامن في بطنها على زعمهم إذ لم يكن من المعقول أن تسير عربة من غير حصان يجرها.»

كان قائد تلك الرحلة هو ديفيد فوربس، من عائلة أسكتلندية الأصل، تشتغل في تصدير عرق السوس من تركيا الى أوروبا والولايات المتحدة، ولهم شركة تدعى «ماك أندرو وفوربس» في الولايات المتحدة، وللشركة فروع في أسطنبول والأسكندرونة وكذلك في البصرة كما يذكر لوينغريك في كتابه عن تاريخ العراق المطبوع عام ١٩٥٣. وبصحبة ديفيد فوربس كان هناك سائق السيارة ويدعى واط، وكذلك ميكانيكي من مدينة الأسكندرونة حيث أنطلقت السيارة الى حلب في طريقها الى بغداد، وفي مدينة حلب التحق بالمجموعة طباخ وكذلك أحد البدو كدليل للطريق. وكان قد تم وضع خزانات وقود إضافية الى السيارة وكذلك خزان لوضع بعض اللوازم الإضافية من فؤوس وجرافات وحبال. وضع ديفيد فوربس مقالة طويلة في أحدى المجلات الأمريكية يصف فيها تلك الرحلة.

الرحلة من حلب الى بغداد

بعد الوصول الى حلب من الأسكندرونة والأستراحة فيها، أنطلقت الرحلة الى بغداد مع فجر يوم الأثنين ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٨. صادف ليلة الأنطلاق أمطار غزيرة في حلب ألا أن الطريق كان سالكاً الى حد ما، تتخلله بعض الصعوبات في اجتياز الأراضي الوعرة والوديان المتعددة. إضافة الى معوقات أخرى، فالبرد القارس في الصباح كان يؤخر تشغيل السيارة وكذلك وصول رمال الصحراء عن طريق خزان الوقود الى مصفى الوقود (الفلتر)، حيث تم تنظيف المصفى مرات عديدة منذ الأنطلاق من حلب حتى الوصول الى بغداد. في يوم الأربعاء ١٨ تشرين الثاني وصلت السيارة الى مدينة ديرالزور، حيث تم التزود بالوقود الذي كان قد أرسل سابقاً ووضع في أحد خانات المدينة. وكان هذه مدعاة لتجمع أعداد كبيرة من الأهالي لرؤية السيارة ما يتطلب تدخل الشرطة لتفريق تلك الجماهير.

وصلت الرحلة الى مدينة (عانه) مروراً بمدينة القائم يوم ١٩ من الشهر، ولمدينة عانه موقع جغرافي رائع وفريد في سهل وادي الفرات، حيث يخترق النهر جانب المدينة وهناك شارع طويل ضيق لعدة أميال بين حافة الوادي وحيطان البيوت القريبة. كان على السيارة أختراق هذا الزقاق الطويل وبصعوبة للوصول الى خان المدينة، ولم يكن باب الخان يسع لدخول السيارة فتركت السيارة في الشارع حتى صباح اليوم التالي مغلقة الشارع تماماً أمام المرور.

في تلك الفترة كانت الشركات الألمانية تقوم بأعمال مد خط سكة حديد بغداد–برلين عبر الأنضول، وكانت الناس تأمل بتحقيق ذلك الحلم الكبير بالنتقل بين بغداد وأسطنبول بسهولة. وحينما وصل ديفيد فوربس بسيارته الى عانه، يقال أن مأمور التلغراف في المدينة سارع لإبلاغ بغداد «لقد وصل أخيراً الشمندفر (القطار) في طريقه الى بغداد.»

كانت خطة ديفيد فوربس بالعبور الى الضفة الأخرى من نهر الفرات في مدينة عانه، فتم احضار عبارة في اليوم التالي، لكن كانت المشكلة في صعوبة تحميل السيارة الى العبارة، أضافة الى ضحالة مياه الفرات في عانه. أقترح أهالي عانه بالنزول زهاء الساعة عن المدينة حيث تكون المياه أكثر عمقاً وربما هناك أرض اسهل لتحميل السيارة. خلق هذا مشكلة جديدة، فالوصول الى تلك المنطقة يتطلب العبور العديد من الترع والسواقي المخصصة لسقي الأراضي الزراعية. فقضي معظم أوقات نهار ذلك اليوم بردم تلك السواقي حتى الوصول الى المكان المطلوب، ولم يكن من السهل تهيئة الأرض لتحميل السيارة الى العبارة عندما حل الظلام. في صباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة، صادف مرور مجموعة من الجنود من بغداد في طريقهم الى ديرالزور، فكانوا عوناً كبيراً في تحميل السيارة الى العبارة وأنزالها في الجهة الأخرى من النهر، وكان الأمر في غاية الصعوبة حيث كادت السيارة ان تنحدر في النهر في أحدى اللحظات، ولم تتم العملية الا بعد منتصف النهار.

الطريق من عانه الى بغداد كان سهلاً في أغلب الأوقات، وكان من الممكن حتى كتابة رسالة وبدون صعوبة، لكن في بعض الأحيان يكون الطريق خطراً للغاية، فبعض المناطق الصخرية أدت الى أتلاف عدد من الأطارات. وحينما لاحت في الأفق مآذن وقباب الصحن الكاظمي قبل المغيب في يوم ٢٣ من الشهر حدث عطل جديد في أحد الاطارات، وكانت جميع الأنابيب المطاطية الداخلية (الجوب) الاحتياطية قد نفدت فكان لابد من ملء الاطار بالحشائش والمزروعات والسير ببطء حتى الوصول الى بغداد. لم تتمكن السيارة العبور الى الرصافة عندما نفذ الوقود بالكامل بالقرب من الجسر، فتركت السيارة مع الميكانيكي في حظائر العربات القريبة في الكرخ. يقول ديفيد فوربس في اليوم التالي رجعت لتفقد السيارة وكانت هناك جمهرة كبيرة من الناس في الشارع الضيق الى مدخل الكراج وكان صاحب الكراج يستوفي أجور لقاء الدخول ومشاهدة السيارة. فقد أشيع في بغداد بأن الشمندفر قد وصل الى بغداد. كانت رغبة فوربس بالعودة بالسيارة الى الشام لكن نفاد الوقود وعدم توفره في بغداد، حال دون ذلك إذ كانت الرحلة قد استهلكت ١٣٦ غالوناً (أكثر من ٥٠٠ لتر) من الوقود، وكذلك إصابة السائق واط بالتيفوئيد من شرب المياه الملوثة في الطريق، ترك ديفيد فوربس السيارة في بغداد ورحل الى البصرة ومنها الى الهند عائداً الى بلاده.

تذكر الكثير من الأدبيات العراقية أن حمدي بابان، كان أول من امتلك سيارة في بغداد، فربما أن السيارة التي تركها فوربس هي ذاتها أصبحت ملكاً لحمدي بابان، خصوصاً أن تلك المصادر لم ترو لنا كيف وصلت السيارة الى بغداد. وكان حمدي بابان من أغنياء بغداد وهو عضو في المجلس البلدي لمدينة بغداد في العهد العثماني.

أفضل طريق بين حلب وبغداد قبل الدخول الى مدينة ديرالزور.

حين غنى القبانجي قبل 80 عاماً نار بوجنتك لو نور

مهدي حمودي الانصاري

الشاعر عبد الرحمن البناء نظم الشعر بشقيه الفصيح. والعامي، وهو صحفي رائد أصدر في ثلاثينيات القرن الماضي صحفاً يومية وأسبوعية سياسية وأدبية (بغداد) و (الاخلاق) و (النور) والقارئ لصحف البناء يراها زاهرة زاخرة من الفها الى يائها بـ(البغداديات) الازهيريات والابوذيات، والعادات والتقاليد التي اهتم بها البغادده. ايام مضت ولاتزال .. فقد طالع كاتب هذه السطور صحف البناء في المكتبة الوطنية وكان مديرها الاستاذ عبد الحميد العلوجي، ولما التقيت العلوجي في مكتبة اطرى صحف البناء لحفولها بالتراثيات والفولكلوريات، ومن كتاب ،بغداد، والاخلاق، والنور.

الاستاذ محمد القبانجي:

كان عبد الرحمن البناء، بناءً مشهوراً فقد بنى العديد من البيوت والقواويش قبل دخوله ميدان الصحافة ، وله في المكتبة ديوان بأسم (الاستقلال) بجزأين لذا لقب بشاعر الاستقلال. أرتدى البناء لباس الرأس (الكشيدة) والصاية، والزخمة ، والزبون والعباءة نظم العديد من القصائد الادبية والسياسية والاجتماعية والوطنية ، وطاب له نظم البغداديات الازهريات والابوذيات ومنها قصيدة (نار بوجنتك لو نور) التي غناها المطرب العراقي الاول الاستاذ محمد القبانجي .. بصوته الرخيم الجميل.. والقصيدة تقول ..

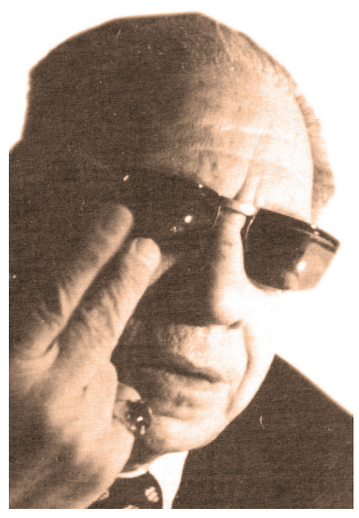

نار بوجنتك لو نجم
لو شامة مأخوذة برسم
رضوان لو شافك يهم
بالحور مثلك ما صار
بلور منقوش بشذر
جيدك وجفك والصدر
يهواي دبرلي الامر
لو جنه بيهن كل جنس
مكصودي أكرب واقتبس
منها الفواكه وأثمار
جنه وصوت من كل ثمر
بيها الحسن كله انحصر
نجم وشمس بيهن كمر
ياهو النظر بيها أحتار
محتار بيها وممتحن
لو نظر شامة أعله الوجن
رضوان لو شافك يجن
بالحسن مثلك ما صار
لو واصلت تحي الجبد
ولو زرت جزما تنزار
تزورك الوادم بس الك
كل مغرم بشوكك هلك
لو حصل عاذل واعذلك
كله ابتعد مالك كار
كله ابتعد لا تبتلي
يهواي بالكلبك خلي
فوك الوجن شامات الي
وده الزلف ليها أخطار
أخطرها الزلف كبل الخطر
ياهو النظر ليها أنجبر
حيف البصر يهل النظر
حارت بوصفه الانظار.

العطارة والعطارون في بغداد

العطارة هوَ المكان الذي تباع فيه انواع الاعشاب والنباتات والمستحضرات والعطور والمساحيق وكانوا يسمونها ازخانه وجمعها ازاخين وازخانات واصل اللفظ (اجزاء خانة) اي مكان العقاقير ، كما كانوا يسمون الصيدلي ازاجي وهو بائع العقاقير الطبية ومركبها.

وقد بدأت مهنة العطارة في العصور الاسلامية وكانت تسمى بـ(العشابين) وهم الذين يستخدمون الاعشاب للتداوي، وبائع الاعشاب قديماً هو العطار وسوق العطارة هو المكان الذي تباع فيه العطور والادوية .

وكانت مهنة العطارة تحتاج الى معرفة وخبرة لكي يلعب دوراً اساسياً في حقل تجارب العطار ، اذ تساعده الخبرة المكتسبة لديه من طول فترة الممارسة في اعداد العقاقير وتحضير المركبات الطبية المفيدة لكل حالة مرضية طبياً وعلاجياً وتعد تجارة العطارة تجارة رائجة في مختلف العهود والازمنه عند مختلف شعوب العالم ، فما زالت هذه المهنة منتشرة وتمارس باساليب مختلفة على المستوى العالمي ، حيث ان معظم الدول الاوروبية كثيراً ما تستعمل الاعشاب والنباتات الطبية لتحضير العقاقير والمستحضرات الدوائية الحديثة التي نراها اليوم.

ولم يحظ اجدادنا بالطبيب او المستشفى او الصيدلية لمعالجة امراضهم وامراض ابنائهم فكانوا مثلاً اذا مرض احد اطفالهم تعرضه امه على الجدة القابلة التي ولدتها فهي التي تشخص مرضه حسب خبرتها وتجربتها فتصف له العلاج من العطار فأذا كان الطفل كثير الصراخ وبطنه منفوخة وصفت له الجدة مجموعة من العطاريات تفورها الام وتسقي بها الطفل وهكذا كان الحلاق (المزين) يقوم بعدة اعمال طبية منها الحجامة لسحب الدم الفاسد ويداوي الجروح ويجبر الكسور ويقلع الاسنان ويقوم ايضاً بختان الاطفال اضافة الى حلاقة شعر الرأس واللحية كذلك كان للعطار دور فاعل في معالجة الامراض ووصف العقاقير فبعد ان يقف على اعراض المرض الذي يشكو منه المريض فيسرع العطار الى القواطي وهي علب تحتوي على الاعشاب والنباتات وتكون مرتبة على رفوف دكانه يجمع بعض البذور والاعشاب والنباتات والتي يعتقد بأنها الدواء الناجح لمرض ذلك الزبون وكان يكتب عادة على كل قوطية اسم المادة التي تحتويها من الاعشاب والبذور وبعد تقدم العلوم الطبية وانتشار المستشفيات والصيدليات في عموم العراق وتخرج مئات الاطباء والصيادلة سنوياً اوشكت معظم الادوية الشعبية وطرق تحضيرها بالاساليب القديمة الى قلة الطلب وضعف الاقبال عليها من الناس وقد ورد اسم العطارة في تراثنا الادبي والشعبي حيث قال احد الشعراء حكمة شعرية نظمها بقولة (ولايصلح العطار ما افسد الدهر) كذلك ذكر اسم العطار في الامثال الشعبية بقولهم (العطار يصيح ما بخرجه) يضرب لمن يعيب غيره بما فيه وقال ايضاً (البكال ميحب بكال بصفة والعطار ما يحب عطار بصفة) وهذا يضرب لتنافر اصحاب المهنة الواحدة في مكان واحد كذلك ورد اسم العطار في الشعر الشعبي وترانيم الامهات

رأسي وجعني كومي شديه
ودوايه من العطار جيبيه
شد الغريبة مانفع بيه

وهناك انواع كثيرة من الاعشاب والنباتات المعروفة لدى البغداديين وبقية المحافظات والتي يستخدم قسم منها لعطور مثل الورد وبعض الازهار والبخور بأنواعه والقسم الاخر يستخدم للزينة امثال الحنة والديرم والاثمد وقسم اخر يستخدم مطيبات مع الطعام امثال البهارات والفلفل والدارسين والقسم الاخر يستخدم كوصفة طبية للعلاج امثال البابونج والحرمل والخرنوب ودهن الخروع وغيرها وهناك الكثير من الاعشاب والبذور و النباتات لها فوائد طبية لايسع المجال لذكرها أما اقدم عطاري بغداد ومتعاطي الطب الشعبي نذكر منهم :- (ابن الحجامة) وهو يهودي من بغداد اشتهر بالحجامة وكان يقصده المرضى من كل مكان وكان يتعاطى مهنته بالقرب من حمام الشورجة في عشرينيات القرن الماضي

×(ابن رحمين) ايضاً من يهود بغداد كان حلاقاً ويداوي الجروح ويختن الاولاد كان يسكن الشورجة.

(ريمة رجوبي) كانت أمرأة تعالج القرع باللصقات التي كانت تحضرها بنفسها وكانت تعيش في محلة الجعيفر في كرخ بغداد وتوفيت سنة ١٩٤٥.

(الحاج حسن محمد العطار) امتهن مهنة العطارة منذ شبابه وكان يتعاطى بيع المواد العطارية من بذور واعشاب كما كان يصفها لبعض مرضاه في دكانه الواقعة في سوق الميدان بالقرب من حمام الباشا وكانت تساعده في تحضير بعض الادوية زوجته (فرجة بنت جاسم محمد البصام) كان يسكن في محلة حمام المالح في رصافة بغداد. (الحاج كاظم) كان عطاراً يتعاطى بيع الاعشاب والبذور والمعاجين لمن يقصده من المرضى وكان مشهوراً في محلة سوق الدجاج في كرخ بغداد توفي خلال الحرب العالمية الأولى (محمود تاج الدين) من مواليد سنة ١٩٠١ تخصص في مهنة العطارة منذ الصغر وكان دكانه في محلة الدهانة يصف بعض الادوية الشعبية لمرضاه ويحضرها لهم بنفسه وهو رحب الصدر هادئ الطبع.

(الحاج حسين مال الله) كان حلاقاً في محلة سوق حمادة في كرخ بغداد كان ماهراً في الجراحة والفصد والختان وخلع الاسنان والحجامة وكان يحضر الادوية بنفسه وتوفي سنة ١٩٢٣ . واليوم لاتزال مهنة العطارة والعطارين لها رواج واقبال واسع عليه فلها اسواق ومحلات عامة وخاصة المجتمع البغدادي وبقية المدن الاخرى لانها تستخدم على الاغلب كمطيبات في المطبخ العراقي وعطور اضافة يستخدم القسم الاخر منها كوصفات طبية لمعالجة انواع مختلفة من الامراض.